الرؤى الثامنة

أبواب السماء

سهير محمود

أخبريني ماذا تكونين؟
هل أنتِ شيطان يجوي في جعبته أماني السنين؟
أم ملاك ظننته..فأضحى وهمًا يُسقيني كأس الأنين؟
أكنتِ قدرًا حكمته بعد أمرٍ تبين؟!
شيطانٌ أنتِ؟! أم ملاك؟! أم حلم ليلةَ صيف حزين؟!

سهير محمود

أبواب السماء

طلبت مني زوجتي ذات يوم أن أتبنى طفلًا من ملجأ الأيتام، نتخذه ابنًا نُربيه ونأويه، ولأننا حُرِمنا إنجاب الأطفال لم أُمانع كثيرًا، رغم أنني شعرت بضيق صدري حينها، وأخبرت زوجتي بأن نتريث كي لا نندم، أعقب طلب زوجتي شهور عدة وأنا أُماطلها كلما فاتحتني بالأمر، وأطلب منها أن نتريث في تنفيذ ما عزمنا عليه، ومن جهة أخرى كنت أدعو الله أن يرزقني ذاك الصغير من صلبي، ولكن أبواب السماء لم تُفتَح في وجه دعواتي، أو لم يحنْ أوان انفتاحها إن صح التعبير.

كانت زوجتي تذبل بمرور الوقت، وتتقلص ابتسامتها، ويتلاشى بريق عينيها اللتين كانتا منذ وقت قريب كعيون الغزلان، وأصاب جسدها الضمور، فخشيت عليها الوحدة، خاصة بعدما أبت زيارة الطبيب الذي تعرفت عليه من خلال إحدى البرامج الطبية بالتلفاز، مُعللة بأنها سئمت عيادات الأطباء، وتكرار تلك الرحلات العلاجية التي لا فائدة منها، وأنَّى تتأتى لنا الفائدة وقد أجمع كل الأطباء الذين ذهبنا لهم بأننا على أفضل حال، ولا يوجد لدى أحدنا ما يُسبب العقم أو يؤخر الحمل.

لا شك بأنني أتألم لتلك الحالة التي أراها عليها، وهذا الوهن الذي أصاب جسدها الغض، وتلك الكآبة التي اعتلت وجهها الذي لم أنس إشراقته منذ خمسة عشر عامًا مضت حين تزوجتها، أتذكر فرحتها عندما قمنا بإجراء عملية الحقن المجهري، واستبشارها خيرًا، إلا أن فرحتها تلك استحالت حزنًا عندما فشل إتمام الحمل، كم من محاولات باءت بالفشل، وكم من أمنيات ذهبت أدراج الرياح.

هبَّت نسائم خريفية باردة على غير أوانها في ذلك الصيف القائظ الحرارة، فداعبت وجهي بلطفٍ، ولامست روحي الجرداء بفرحةٍ عابرة، كنت قد افتقدتها منذ أمدٍ بعيد، كنت أقف في شرفة حجرة النوم، أتأمل السماء التي اكتست بلون الشفق، وعكست حمرتها الدامية علي سطح الأرض، فغاب اللون الأصفر الذي كان يُلون الأفق أمامي منذ حين خلف لونيها الأحمر القاني والسماوي الزاهي، انتبهت لخطوات زوجتي مُتجهة ناحيتي من المطبخ، فنظرت لها مُتسائلًا:

أعددتي الطعام؟

- لم أنتهْ بعد.

صمتت قليلًا ثم أردفت: ما رأيك أن نسافر للأسكندرية؟

- لماذا الآن؟

- لا أدري، مجرد رغبة اجتاحتني.

طوقت كتفيها بذراعيَّ وضممتها لصدري قائلًا: كما تشائين، فلنسافر في الغد.

مع دقات العاشرة صباحًا انطلقنا بعربتنا صوب الإسكندرية، نصمت حينًا ونتسامر أحيانًا، إلي أن وصلنا للشاليه خاصتنا، عاونت زوجتي في تنظيفه، وقضينا يومنا الأول في التنظيف واقتناء مستلزماتنا، رغم أننا لم نكن نعود له إلا وقت المغيب حيث كنا نقضي النهار بأكمله على الشاطئ، بدت زوجتي مرحة ومفعمة بالحيوية، وكأن الحياة دبت في أوصالها من جديد، كنت أتمني أن تمتد رحلتنا لشهر أو يزيد، إلا أن ظروف عملي اقتضت عودتي للقاهرة، لاسيما وقد انتهى أسبوع أجازتي.

استقلينا السيارة عائدين للقاهرة، في تمام الساعة السابعة مساءً، بدا الطريق الصحراوي خاويًا، فكنت أقود بسرعةٍ عاليةٍ خشية هذا الخلاء المُحيط بنا، وعلى غير العادة تعطلت السيارة وأبت السير، انقبض صدري إثر ذلك الخلاء، ولم تكن زوجتي أقلَّ خوفًا مني، ارتجلتُ عن السيارة لفحص إطاراتها الأربع فوجدتهم على أتم حال، فدبَّ الفزع في قلبي أضعافًا مضاعفة، توجهت

صوب الغطاء الأمامي فرفعته لأفحص الموتور، فوجدته على أفضل ما ينبغي فنهشت الحيرة عقلي، حينها سمعت زوجتي مشيرة بيدها للأمام:

انظر.. محطة وقود!!

ماذا؟! كيف؟!

كنت أعرف هذه النواحي، لطالما كانت صحراء خواء، فمتى أُنشئت تلك المحطة؟

لم يكن من الحكمة مُصارحة زوجتي بما يجول بخاطري، فأعدت الغطاء مكانه ونظرت لها قائلًا:

-امكثي هنا، سأحضر المساعدة.

لا.. أنا خائفة، سوف أذهب معك.

سرنا سويًا حتي محطة الوقود زاهية الأنوار، فقابلني أحد العمال مُرحبًا وعارضًا عليَّ خدماته، فشرحت له حال العربة فنادى شخصًا آخر له لحية خفيفة، عرفت من ملابسه أنه ميكانيكي سيارات، توجه للداخل وأحضر بعض أدواته، وطلب مني أن يعود معي لإصلاح السيارة، فحص الميكانيكي العربة وأصلح العطل الذي أصاب محركها، ثم طلب مني تزويدها بالوقود الكافي

من المحطة، حيث أوشك وقودها على النفاد، ففعلت ما أمر.

وفي أثناء عبور العربة بوابة المحطة لخارجها، كانت الرياح تثور بقوة، وتندفع باتجاه بناء بجوار المحطة، لم أتبينه جيدًا إلا عندما توقفنا أمامه بالعربة، مبنى عتيق عليه لافتة كُتب عليها "دار أيتام الرحمة"، كادت أطرافي تُشِل، كما شُلَّت السيارة مرة أخرى، كيف ولم نخطو بها سوى خطوتين؟

ترجلت عنها دافعًا بابها بأقصي قوتي من الغضب، فرأيت على وجه زوجتي ما زادني اندهاشًا، كانت تتأمل إحدى الشرفات بعينين لامعتين ووجه منشرح، فاقتربت برأسي عبر نافذة العربة قائلًا:

ماذا بكِ يا غادة؟

انظر لتلك الصغيرة.

نظرت لحيث أشارت فرأيت فتاة صغيرة ترمق عربتنا من شرفتها البعيدة، وأظنها كانت تبتسم لنا، التفتُّ لزوجتي وقد ارتعدت فرائسي بلا مبرر قائلًا: هيا بنا يا غادة لنرحل من هنا.

- إنها تومئ برأسها تُنادي، بل تترجاني أن آخذها.

- هل جننتي؟ هل تصدقي ما نراه؟ إنها وهم كما كل شيء حولنا.

- لا.. أرجوك.. لا تقل هذا.. أنا أراها وأسمعها وأشعر بها.

وجدت الأمور تزداد سوءًا، فاقتربت منها أحاول إدخالها السيارة لأنطلق بها بعيدًا عن هذه البقعة التي كنت أشعر بزيفها، ففُتح باب الملجأ فجأة، وتحدث صوت من خلاله: تفضلا إن كنتما ترغبان بالدخول.

فغر فمي من هول المفاجأة، التي لم تدع أمامي مجالًا للشك بأن كل ما يحدث أمر مريب، وأقولها لأول مرة في حياتي أشعر بالخوف، ولأول مرة بحياتي أتمنى أن يكون الواقع كابوسًا، ليتني أستفيق منه، لم يكن من امرأتي إلا أن اقتربت من الرجل الذي ظهر من بين فرجة الباب الكبير، داعيًا إيانا للولوج للداخل.

وقفت في محازاته وسألته: هل هذه دار أيتام حقًّا؟

نعم سيدتي.. تفضلا إن كنتما ترغبان الدخول.

نظرت لي بابتسامة عذبة، كأنها تترجاني بالولوج، فلم يكن مني إلا أن انضممت إليها، وما إن نفذنا عبر البوابة الكبيرة إلا وأغلق الباب مُحدثًا صريرًا مُدويًا أفزعنا، فانتفضنا معًا.

سرنا خلف الرجل المعمم بعمامة بيضاء، ويرتدي جلبابًا ذا أكمام واسعة، في ممر طويل يتوسط حديقة، غُرِست بأرضها الموحلة أشجار وشجيرات تتخللها حشائش قصيرة، انتهى بنا الممر عند بعض السلالم التي قادتنا لباب الدار الخشبي، ذي الطلاء الحديث،

رأيت حينها عليه رسوم لطلاسم غير مفهومه تحيط بطلسم بدا وكأنه جمجمة، سمعنا ضوضاء أطفال لم نرهم، بمجرد أن اجتزنا الباب الذي تركنا عنده حارس البوابة الخارجية، فإذا بسيدة أربعينية جميلة تضع عطرًا نفاذًا، ويتدلى من عنقها سلسلة ذهبية على شكل الطلسم الذي بالباب.

قادتنا السيدة لمكتب مديرة الدار بعدما رحبت بنا بابتسامة عذبة، كشفت عن أسنان بيضاء منتظمة كحبات اللؤلؤ، سرنا في ممر ضيق علي جانبيه تتراص الغرف المغلقة حتي وصلنا لحجرة كتب على بابها بخط سميك " مديرة الدار"

فتحت أمامنا الباب قائلة: أهلًا بكما.. تفضلا.. الرئيسة بانتظاركما.

فولجنا للداخل لنرى أمامنا امرأة شابة في عقدها الثالث، تبدو في أبهي زينتها، شعرت حيالها بالانجذاب، أو ربما سلبت جزءًا من قلبي خاصة عندما تحدثت: تفضلا.. مرحبًا بكما.

ثم أردفت: أظنكما بحاجه للمساعدة هل تعطلت سيارتكما؟

ولأنها لم تسمع جوابًا أكملت: وان كنتما ترغبان في قضاء الليلة هنا فلا مشكلة.

نظر كلانا للآخر باندهاش، لا نعي ما نسمع، كيف علمت بما

حدث للعربة؟ ولماذا فُتح الباب في هذا التوقيت دون غيره؟

ذُهلت عندما قالت زوجتي: أود تبني الفتاة.

- أي فتاة سيدتي فهن كُثر؟

- الفتاة التي تقف في شرفة الحجرة الشرقية بالخارج.

بمجرد أن سمعت الكلمات ضغطت زر بجوار مكتبها، فدخلت السيدة الأربعينة وقالت بأسلوب مهذب: ماذا تريدين سيدتي؟

من من الفتايات كانت تقف بشرفة الغرفة الشرقية؟

أظنها رؤى هي التي اعتادت الوقوف في الشرفة في هذا الوقت المُتأخر.

أحضريها إذا سمحتي.

كنت بذاك الوقت أرمق زوجتي بنظرات عتاب، فأنا لا أصدق شيئًا مما يحدث حولي.

بعد برهة عادت المشرفة تصطحب فتاة صغيرة في عامها الخامس، بهرني جمالها الأخاذ، شعرها الناعم بني اللون، قصير لكنه كثيف، أضاف جمالًا لوجهها الأبيض النحيف، وعيناها الخضراوان لوهلة تراهما جذابتين، شبيهتان بعيون القطط، دفعت بها المشرفة أمام مكتب رئيسة الدار وقالت: هاهي رؤى سيدتي.

تعالي رؤي لا تخافي.. انظري إلى تلك السيدة الحنون.

قالتها مشيرة برأسها ناحية زوجتي، ثم أردفت مع نظرات الصغيرة الخجلة لغادة: تود أن تتخذك ابنتها فما رأيك صغيرتي؟

نظرت الصغيرة لكلينا وابتسمت، وحين تلاقت عيني بعينيها شعرت بإحساس غريب ينفذ لروحي، شعرت وكأنني وجدت ضالتي بعد خمسة عشر عامًا من البحث المُضني، ابتسمت رئيسة الدار وقالت: أظننا اتفقنا.

ثم أردفت: لكن الأمر ليس بتلك السهولة.

قالت غادة مُتسائلة: لماذا؟

لابد من بعض الإجراءات؛ ينبغي عليكما أن تُقدما طلبًا للجهات المختصة، ولن يقبل طلبكما إلا بعد أن نطمئن لمستوى الأسرة المادي والاجتماعي، إذا تفضلتما بترك رقم هاتف خلوي أكون شاكرة، كتبت لها زوجتي رقم هاتفها الخلوي، وانطلقنا بعربتنا التي من العجيب أنها تحركت بلا أدنى مقاومة، عائدين بعد رفض عرضها بالمبيت.

بعدما يقرب من أربعة أشهر استلمنا رؤى، وامتلأت جنبات منزلنا بضجيجها وصخبها، أعدَّت لها زوجتي غرفة بجوار غرفتنا،

واشترت لها ألعابًا مُتنوعة، وثيابًا كثيرة، وتعلقت بها وصارت لا تُفارقها، تغدو وتروح بها لكل مكان؛ لشراء حاجياتنا، لزيارة أهلها، لعيادة جاراتنا، ورفضت بشدة إرسالها لحضانة أطفال بعيدة عن منزلنا، رغم صيتها الذائع، وفضلت عليها حضانة أخرى قريبة من مكان إقامتنا، رغم أنها لم تكن ذات مستوى مرتفع كالأولى.

حتى عند التحاقها بعامها الأول بالمدرسة أصرت زوجتي علي تقديم أوراقها بإحدى المدارس القريبة من منزلنا، وكانت تُجبرني كل صباح على اصطحابها إلى المدرسة، لن أُنكر أنني كنت أشعر بالغيرة تارة، وبالكراهيةتارة، بالشفقة عليها تارةً أخرى، خاصةً بعدما عرفنا من رئيسة الدار تلك الحادثة البشعة التي أودت بحياة أبويها؛ فلقد كانا ذاهبين لزيارة أقاربهما في المنصورة، فإذا بعربة تحمل اثنى عشر راكبًا تقطع الطريق أمام سيارتهم، ليوقفها الأب حائرًا خائفًا، لا سيما وقد ارتجل عن العربة خمس رجال من البلطجية وأشهروا الأسلحة في وجهيهما مهددين إياهما بالقتل، فزعت الصغيرة بين أحضان والدتها، وزاد صريخها عندما انتزعها أحدهم من بين ذراعي والدتها وتركها على الأرض وحاول الاعتداء على والدتها.

ثار الأب لما يحدث فحاول التملص من بين حصارهم

والدفاع عن زوجته لكنه لم يستطع فإنهال عليهم ضربًا كالمجنون، إلا أن سكينًا من أحدهم نفذت لصدره فسالت دماؤه تعلوها صرخاته وتأوهات زوجته، التي استقبلت طعنة عندما هجمت على الرجل الذي كان يُمزق ثيابها منذ قليل، تركوهما في الصحراء غارقين في دمائهما، وفي ظلمة الليل، وأخذا الصغيرة والسيارة إلى أن استقر بهم الرأي لترك الطفلة ذات الأربعة أعوام في إحدى المقابر ليستكملوا سيرهم، ناهبين السيارة والهواتف والنقود التي كانت بحوزة ضحاياهم.

ربما لو كنت عرفت تلك الحادثة مسبقًا لما تبنيتها، ليتها أخبرتنا، ولكن تلك الحسناء كمعظم النساء تدَّخر المفاجآت لحينها، ولولا ذلك الموقف لما أخبرتنا، هذا الحدث الذي غيَّر مجرى حياتنا وقلبها رأسًا على عقِب، فلقد كنت مكلفًا بالنظر في قضية هامة، ولأن وقت العمل في المكتب لم يكف للاطلاع على كافة الأوراق، اضطررت لاصطحاب ملف القضية للمنزل لدراستها واستنتاج أوجه القصور بها، والتي من الممكن أن أنفذ بسطوة القانون من خلالها لتخفيف الحكم على موكلي، قابلتني زوجتي بمجرد دخولي المنزل بابتسامة صافية، وحدثتني بأن هناك أمرًا مُهمًّا لابد أن أعرفه الآن وليس بعد.

جذبتني من ذراعي لغرفة النوم فتركت الملف عن غير عمدٍ على طاولة السفرة بالبهو، لم ألاحظ حينها جلوس رؤى على الأريكة تشاهد التلفاز، أو ربما تتظاهر بهذا! كانت تضحك خلف الباب المغلق مع كل كلمة تقولها، وتلهو بي وبأعصابي بكلمات غير مفهومة، إلا أنني كنت متعبًا، فأحطتُها بين ذراعي قائلًا: غادة أنا متعب أخبريني بما عندك.

أمسكت يدي ووضعتها على بطنها قائلة بمرح ومداعبة لطيفة: ألا تريد أن تصبح أبًا؟

- لا.. غير معقول.

بل يُعقل صدَّقني.

حقًّا؟

نعم يا عزيزي شعرت بالتعب فذهبت للطبيب الذي أكد لي شكوكي، ولم أُخبرك إلا بعدما تأكدت.

يا الله.. الحمد لله.

نعم الحمد لله.

أيُصدق هذا؟ بعد سبعة عشر عامًا من الصبر، عقلي يكاد ألا يستوعب.

حملتها برفق وأودعتها الفراش ثم أردفت: لا ترهقي نفسك بعد اليوم، أنا سأفعل كل شيء.

ضحكت بدلال ووداعة فأضاء الكون من حولي، ولا أدري كم وقتًا مضى نتبادل الحديث والأمنيات، وبعد فترة تركتها في الفراش وخرجت من الغرفة قاصدًا الحمام، فرأيت ورق القضية مُمزقًا مُتناثرًا علي أرض البهو، يُطيره هواء المروحة التي تجلس أمامها الصغيرة، شعرها يتطاير كما الورق حول وجهها المُحتقن، وتختبئ عيناها خلف بعض الخصلات، تمسك بقية الأوراق وتمزقها بشراسة.

لم أشعر بنفسي حينها أحرقتني نيران الفشل، وأعماني الغضب فتوجهت ناحيتها جاذبًا إياها من ذراعها الصغير، فكاد يقتلع من موضعه، وصفعتها على وجهها وليتني ما فعلت.

خرجت زوجتي على صوت صرخاتها بين يدي وخلصتها من يدي ناهرة إياي:

عاصم هل جننت؟! لمَ تضربها؟

انظري لِمَ فعلت.. كيف سأدافع عن موكلي الآن؟ ضاع مستقبلي المهني بسبب تلك الحمقاء.

لماذا فعلتِ بي هذا يا غادة؟ لماذا تسرعتِ؟ لم أنس تلك اللحظات القاسية التي مرت عليَّ حينها، أصاب الصغيرة حالة تشنج فارتمت على الأرض تهتز وترتجف، وعيناها ثابتتان علي، فزعت من بياضهما ونظرتهما المتوعدة، كانت تُتمتم بل تُطفطف بهمهمات غير مفهومة، بينما تقوست على نفسها كما الجنين، لم أتبين ما يحدث حولي من نظراتها التي كادت تقلع قلبي فزعًا.

مرَّ ما يقرب من خمس دقائق وهي على ذلك الحال، وزوجتي تحاول جاهدة إفاقتها وإسعافها بأي طريقة لكن لا سبيل، ورغم تلك المشكلة العويصة التي تعرضت لها في عملي، إلا أنني شعرت بالشفقة عليها، وكنت أسعى جاهدًا لتعويضها عما بدر مني، بخاصةً بعدما عرفت زوجتي من رئيسة الدار ما أصاب الصغيرة من آلام وتشرد بعدما حادثتها هاتفيًّا، إلا أن الأمور لم تعد كما كانت بالسابق، فلقد تغيرت رؤى وتغير طعم الحياة؛ لم تعد تضحك أو تلعب، لم تعد تأكل كسابق عهدنا بها.

كانت تنفصل عنا شيئًا فشيئًا حتى إنها نادرًا ما كانت تشاركنا مكان جلوسنا، كنت أحترق لأجلها ولأجل زوجتي التي كانت تتألم لانفصال روحيهما الذيْن تآلفا يومًا كأم وابنة، غرق المنزل في الصمت والظلمة، وفاضت أرواحنا بالحزن والهم لتلك الصغيرة

التي فارقتنا للأبد، إلا أن الله لا ينسى عباده، أنجبت زوجتي عمر الذي غمر أرواحنا سعادة وفرحة، يكفي أنه من صلبي، من دمي ويحمل اسمي.

أحببته كثيرًا وكذا زوجتي التي وجدت به سلواها إلا أننا لم ننس رؤى، فكُنتُ إذا ابتَعتُ ثيابًا أو ألعابًا لصغيري أبتاع لها، رؤى تلك الصغيرة التي رغم صغر سنها كنت أشعر في عينيها بالغرق في محيط من الظلمة، لم تكن تشاركنا الجلوس بل اعتادت الوحدة، واعتدنا نحن غيابها، ورغم ذلك كنا نسعى جاهدين لكسب ثقتها، وخاصة أنا، ولكن بعد ماذا؟ فقد تعدى عمرها الثمانية أعوام بشهور، ولا تزال كما هي حزينة وحيدة.

كنت أحترق عندما أرى الغيرة تطفو على نظراتها وأحيانًا الكراهية، كنت أتمني حينها لو واتتني الجرأة على الاقتراب وتقبيل يديها طالبًا منها الصفح، غريب أمر تلك الفتاة التي لم تنس موقفًا واحدًا رغم عشرتها لنا التي ناهزت الأربع أعوام، غريب كذلك هالة الحزن التي باتت تلازمها مهما حاولنا إسعادها، كنت أتمنى أن أسمع صخبها وضحكاتها عند خروجنا في النزهات الأسبوعية التي كنا نقوم بها لأجلها خصيصًا، لكن بماذا يفيد التمني بعد ما فُقد؟

عمر كان جميلًا كالبدر في ليل تمامه، إذا ضحك تضحك

الـدنيا، وإذا لعـب تـشرق الـشمس، وإذا صـخب ينـصت الكـون بأسره لسماعه، لقد كانت أسعد أيام حياتي، وأجمل لحظة تلك التي كنت أرى وجه زوجتي مشرقًا بالسعادة، ملأ عمر حياة زوجتي بالبهجة فغفلت عن سواه، وصار شغلها الشاغل، كنت أشعر بضجر رؤى من حب غادة الزائد لعمر، وكم نبهتها لذلك الأمر لكنها لم تعي خطورة الأمر حينها:

سأحكي لك موقفين، ولا أدري ستصدقني أم لا، أولهما: ذاك النهار البارد؛ عدت من عملي خلاله منهك القوى، سمعت كركبة الأواني في المطبخ بمجرد ولوجي الشقة، فاتجهت لغرفة النوم، ولم أصدر ثمة صوتًا راغبًا في بعض الراحة، فإذا بي أري أمام عيناي رؤى مُنحنية على صغيري وهو نائم على فراشه، مُمسكة بيديها وسادة صغيرة تحاول بها كتم أنفاسه، فزعت من هول المنظر فانتزعتها بكل قواي دافعًا إياها للخلف، فبدأت بالبكاء فأسرعت زوجتي قادمة صوبنا تستفهم عن ما حدث، فقصصت عليها ما رأيت، فما كان منها إلا أن ازداد حرصها على الصغير، ولم تقبل أن تقسو عليها وعللت دافعها بالغيرة.

وذات ليلة شعرت بظمأ شديد أوقظني من النوم، كانت غادة تغط في النوم، وكذا الصغير يخلد كالملاك في فراشه الهزاز بجوار

فراشنا، خرجت من الغرفة قاصدًا المطبخ، لم أري حينها شيئًا بسبب الظلمة التي أغرقت منزلنا، مددت يدي أتلمس الجدار لأشعل الأنوار فاستوقفني صوت همهمات تصدر من غرفة رؤى، رأيت من تحت عقب بابها ما زادني دهشةً، رأيت نورًا أزرق اللون باهتًا، ينفذ من تحت الباب لا أذكر أن بغرفتها مصباحًا ذا ضوء كهذا، اقتربت من الباب وأمسكت مقبضه وقلبي يتقافز فزعًا، يا إلهي ما الذي أوقظني في ذلك الوقت؟

فتحت الباب على وجل فتحة ضيقة ونظرت خلالها بعين واحدة، فرأيت رؤى تجلس على فراشها على ركبتيها المثنيتين خلفها وجهها للجدار بينما ظهرها للباب، وتضم يديها لبعضهما أمام وجهها، وتتمتم بكلمات مبهمة، ولم أرَ حينها مصدر الضوء الأزرق الباهت، كدت أغلق الباب وأعود كما أتيت، إلا أن الرعدة سرت بجسدي مع التفاتتُها المفاجئة، ربما لن تصدقني القول إذا قلت أنها كانت تُشبه الشيطان حينها.

بات الأمر لا يُحتمل، كانت هذه كلماتي لزوجتي في الصباح الباكر بعدما قصصت عليها ما حدث ليلة أمس، وكيف رغم الفزع الذي كساني تخلصت من تساؤلها بأنني إنما كنت أطمئن عليها، لأنني سمعت أصواتًا تصدر من غرفتها، كادت تبكي

عندما أخبرتها عن رغبتي في إعادة رؤى للدار، غادرت المكتب بعد الظهر قاصدًا دار الرحمة، كنت أفكر حينها في غادة وعمر، أوصيتها ذاك الصباح بأن لا تترك عمر بمفرده مع رؤى، كانت الشمس تعكس وابل جحيمها على زجاج العربة الأمامي، كنت أنتظر أن أرى الدار من بعيد، لاسيما وأن الخلاء يحيك حوله عباءة موحشة، لكنني لم أراها، كذلك لم أرَ أثرًا لمحطة البنزين، عيناي لا تقع إلا على الخواء.

ترجلت عن العربة في المكان الذي ظننته هو، وسرت على مقربة منه، إلا أنني لم أجد أي مبانٍ في تلك الناحية الجدباء، هبَّت رياح صيفية قوية فكونت إعصارًا من الرمال حول قدمي، وسمعت خلال دوي الرياح صوت رنين الهاتف، فأخرجته من جيب الجاكت لأجيب، لم أفهم من صوت المتصل أي شيء سوى كلمتين كفيلتين بأن يُظلما الدنيا في عيني "أغث زوجتك".

كانت الأرض تدور تحت قدمَيَّ كالرحى، والوجود أمامي يتلاشى، وتعم أمام ناظري الظلمة والخلاء، لم أعِ إلا ويداي على مقود السيارة، وقدماي عاجزتان عن التحكم بالفرامل، كادت العربة تطير عن سطح الأرض.

رأيت بضع نفر يجتمعون عند باب منزلنا، وسمعت أصواتًا

متضاربة، وضربات كفوف، ورأيت على وجوههم عندما اقتربت نظرات أسًى، ما إن رآني أحد العساكر أشق الحشد للاقتراب من باب المنزل قال: من أنت؟

أنا صاحب المنزل.

علت الأصوات حينها بالكلمات الاعتيادية في موقف كهذا، بينما قلبي ينقر كقرع الطبول عند ابتداء الحرب:

لا حول ولا قوة إلا بالله.

إنا لله وإنا إليه راجعون.

شد حيلك يا أستاذ.

كفاكم هكذا.. صرخت من هول ما أسمع ثم أردفت متسائلًا: ماذا حدث؟

أفسح لي العسكري شقًّا عند عتبة الباب قائلًا: تفضل وستعرف بالداخل.

كان المنزل يعج بالشرطيين.

"ماذا حدث؟" هكذا تساءلت فانتبه لي رجل يرتدي ثيابًا مدنية قائلًا: من أنت؟

أنا.. أنا صاحب المنزل.

قلتها متلعثمًا فأشار لي بالاقتراب، واصطحبني للحمام الذي كان مُحترقًا، وتفوح منه عندما اقتربنا رائحة لحم آدمي مُحترق، رأيت بين الرماد الذي يُغطي كل شيء ملاءة تغطي شيئًا كجسد أدمي يحتضن شيئًا لصدره، أشار وكيل النيابة لأحد العساكر فرفعها فوجدتها زوجتي عرفتها من وجهها المستدير، ذراعيها مثنيتان على الصغير تضمه لصدرها، كانا محترقان بل متفحمان.

انقبض صدري ودارت الأرض بي وتلاشت، فوقعت في بئر عميق لا أعي شيئًا.

بين فرجة الباب كانت تقف ترتدي ثيابها الأبيض الشفاف، تنظر لي وتبتسم وتدعوني للدخول، اقتربت فاصطحبتني من يدي، فدخلت معها لأجد داخل المنزل يغرق في النور، وسمعت ترانيم الحور، وشعرت بالدفء والحب يملأ الصدور، نظرت لي مشيرة بيدها للصغير الممسك بيدها وقالت هنا منزلنا أنا والصغير.

تأملت ما حولي إذ بدأ يتبدد لأشجار وزهور، ليست كتلك التي نعرفها، لم نعد نرى للمنزل من أثر، وإنما حديقة غناء وأصوات عذبة وضحكات صغار.

كانت تمرح وتلهو بين ذراعي، كانت تدندن كعصفور كناري، على غصن الأمنيات أقام عشه وانتظر فصل الربيع، من بين

ضحكاتها سمعت صراخًا، وانتزعتها يدٍ خفية من بين أحضاني فاختفت، وهُدم عش الأماني.

ورأيتها بين طيات الخراب الذي عمَّ كل شيء عوضًا عن الأشجار والورود والطيور؛ كانت ترمقني بعينين بيضاويتن ووجه محتقن، وشعر بني أشعث تطيره رياح الفزع.

استفقت باليوم الثاني في المشفى، وقصَّت عليَّ أُختي ما حدث لي من إغماءٍ لدى رؤيتي جثمان زوجتي وطفلي، اللذين احترقا عندما حاولت غادة إشعال شعلة السخان، حقًّا شعرت بعدم تصديق ما أسمع، وكأنني أشاهد فيلم رعب لا يقبل أحداثه عقل أو منطق، بكيت عندما استوعبت ما حدث وبين دموعي المحرقة وجسدي الواهن، تذكرت رؤى تلك الصغيرة الغامضة فسألت أختى: أين رؤى؟

أخذتها عندي لا تخف تركتها مع الأطفال وجئت أطمئن عليك.

أريدها أحضريها لي.

كما تشاء ولكن ليس الآن؛ بعد أن تسترد عافيتك وتربط جأش أحزانك، وتضمد جراح قلبك، وتبحث عن مأوى آخر.

سالت عبراتي مجددًا، ونهضت أنتزع رداء المشفى الأزرق لأرتدي ثيابي، حاولت أختي منعي مرارًا ولما فشلت خرجت لإحضار الطبيب، الذي حضر مُسرعًا قاصدًا غرفتي، رأيته عندما كنت أختبئ خلف باب الغرفة المجاورة، فلما لم يجدني التفت لأختي محدثًا إياها: تأخرنا، لقد رحل.

لا يعقل لم يمض أكثر من ثلاث دقائق.

هكذا قالت لبني فأمر رجلًا من رجال الأمن بالبحث عني في المستشفى عندما تيقن أنني لا أزال بها، عزمت على الخروج من المشفى ولسوف أفعل.

تركتهم يتجهون لباب الخروج بينما توجهت أنا للباب الخلفي وأسرعت خارجها، وأنا لا أفكر سوى برؤى؛ لابد أن أعرف ماذا حدث؟ قادتني قدماي على غير قصد لمنزلي، واطمأن قلبي إذ وجدت الشارع خاويًا فلم يزل الوقت باكرًا، دفعت الباب فلم ينفتح، فبحثت عن المفتاح بين طيات ملابسي لكني لم أجده، فدفعته بكامل قوتي فانفتح على مصراعيه.

كان المنزل يغرق في الصمت والظلام، شعرت بأنه تغير عن ما كان، ما أن ولجت بداخله حتى تسللت لأنفي رائحة احتراق جسدها وطفلي، بكيت عندما تذكرت فخرجت تقودني نيران

قلبي، أقصد منزل أختي لبنى، لا أريد سوى شيئًا واحدًا؛ معرفة الحقيقة والاقتصاص لزوجتي الحبيبة وعمر، كنت أتسمع همسات المارة بجواري عني، أو هكذا خُيِّل إليَّ، كنت أتحسر لمص شفاههم عليَّ، كما كنت أشعر بأنفاسهما تحرق صدري، وأسمع صرخاتهما تضجر، روحي وأتسمع أنينهما يدوي في أذنيَّ.

استقليت تاكسي وأخبرته بوجهتي فانطلق، بينما أحفزه على الإسراع كي يتسنى لي الانفراد بها قبل عودة أختي من المستشفى، وقف التاكسي أسفل البناية فترجلت عنه أنطلق كالسهم الطائش للشقة في الدور الرابع، وضغطت جرسها فأتاني صوت صغير مُتسائلًا: من بالباب؟

افتح الباب يا عزيزي، أنا خالك عاصم.

تكلفت كثيرًا كي يخرج صوتي رزينًا هادئًا، ورغم ذلك عندما فُتح الباب كانت تقف في آخر الرواق ترتجف، رأيت الخوف في عينيها كمحيط لديه القدرة بأن يبتلع الكون بأسره لاختلاس الأمان، لكن هيئتها الطفولية المثيرة للشفقة ما عادت تستهويني مُطلقًا، اقتربت منها مُحاولًا إخفاء مشاعري وانفعالاتي، مددت ذراعي لكتفيها فتملصت من بينهما وتقهقرت حتى التصقت بالجدار، فأردت طمأنتها قائلًا: ماذا بكِ يا حبيبتي لا تخافي، ها قد جئت لأحميكِ.. هيا نعود لمنزلنا.

انطلقت مسرعة للغرفة المجاورة وهي تصرخ: لا لن أعود معك.. أنا لم أفعل شيئًا.

تعالت صرخاتها فأحدثت دويًّا على طبلة أذني، عزلني عن الواقع لبضع دقائق، فرأيت حينها رؤى تُشعل أعواد ثقاب في الستائر بينما زوجتي تُحمم عمر، أشعلت النار في عائلتي فاشتعل قلبي توجهت ناحية الباب أدفعه بقوة وحملتها بين ذراعي خارجًا، بها فإذا بأختي تصطدم بنا.

عاصم ماذا حدث لك؟ هل جننت؟ إنها طفلة.

دعكِ من هذا.. أنتِ لا تعرفين شيئًا.

اترك الفتاة إذن وأخبرني.

ترقرقت دموعي، حاولت التملص منها فلم أستطع، وانتزعت بمعاونة أبنائها رؤى من بين يدي وأدخلوها إحدى الغرف وأغلقوا بابها، فعاودت السؤال تارة أخري بينما تقول متوسلة:

أرجوك أخي لا تفعل هذا بي، أنت آخر من تبقي لي من عائلتي.. أرجوك أخبرني بما يحدث معك؟

هذه الصغيرة هي من قتلت زوجتي وطفلي.

اندهشت الأفواه بينما قالت لبنى: لا يعقل أخي ألديك دليل؟ أنى لطفلة أن تقتل؟أخي عد إلي رشدك أرجوك.

تراني جننت حقًّا؟

تركتها لدى أختي.. وتناسيتها وتناسيت كل ما حدث،

أدمنت الخمور رغم أنني لم أتناولها طيلة حياتي، وعدت للحياة في منزلي رغم تعجب المحيطين بي من ذلك، وكيف أتركه وهي لا تزال به.. نعم لم تفارقه قط، أقضي نهاري بين الشوارع والمقاهي، وأقضي مسائي بين البارات، وأعود لأجدها تنتظرني هي وطفلي نداعبه معًا، ونتسامر طوال الليل.

وذات ليلة عندما عدت أحمل في يدي كيس به زجاجتي خمر، وجدت لبني تنتظرني في المنزل، ذُهِلتُ عندما وجدتها معها، نظراتها كانت غامضة تشي بشيء ما، لوهلة ظننتها في سن المراهقة وليست في التاسعة من عمرها، أمرَتها أختي بالاقتراب فاقتربت، وأمالت على يدي تقبلها، ثم رفعت عينيها إليَّ ونظرت لي نظرات بدت وكأنها مُتفحصة، لم أشعر بالرغبة في التحدث إلى كليهما، وربما وعت لبني هذا فبدأت هي بالحديث:

رؤى طلبت مني أن تأتي للعيش معك، تريد استعادة حياتها السابقة، كما تود استعادة أبيها.

صمتت تنتظر مني تعليقًا على كلماتها، فلما عكس ما يجول بذهني ابتسامة ساخرة على شفتي أردفت: ما رأيك؟ هل أنت مستعد لذلك؟

نهضت من فوق الكرسي المقابل لها واقتربت من رؤى قائلًا: ابنتي العزيزة.. اشتقت إليكِ كثيرًا، لم يتبق من عائلتنا السعيدة سوانا.

ترقرت عيناي بالدمع ثم أردفت: تعالي لأحضان أبيك الذي افتقدك، كنت أعلم حينها لابد أن لبني لاحظت عليها شيئًا فخشت على أبناءها، فلا يوجد في الكون بأسره من هو أعز عليها من صغارها، ولقد بدت على وجهها فرحة عارمة لما أبديت من ترحاب وود لرؤى، وقرأت في عينيها ما يؤكد ظنوني، أنها رأت من تصرفات الصغيرة ما أثار مخاوفها فقررت التخلص منها.

غادرت لبنى وتركتنا معًا كلانا يخشى الآخر، أحدنا يرغب في الانتقام، والآخر يرغب في القتل فقط بلا مبرر أو دافع، كنت أرمقها بنظرات تتطاير شررًا وهي تقف بالباب تشيع لبنى، ولما استدارت للداخل اصطنعت فرحتي بها، كانت يدها ترتعش عند إغلاقها لباب المنزل، رأيتها تتوجه ناحيتي وقد ارتدت قناع البراءة والسكينة وقالت من بين ابتسامتها:

أتريد شيئًا يا أبي؟

لا يا عزيزتي أترغبين أنت بأي شيء كطعام أو.....

لا.. هكذا قاطعتني وتوجهت مُسرعة لغرفتها وأغلقت بابها، واختفت عن ناظري.

أفرغت زُجاجتي الخمر في حوض المطبخ وألقيتهما بعدما فرغا تحته، كنت أرغب في أن أظل مُستفيقًا؛ فالليلة ليست كأي ليلة، الليلة سأنتقم لزوجتي وابني من تلك القاتلة الصغيرة، أعلم يقينًا أنني الآن أبدو كالمجنون حقًّا، لكنني لست مجنونًا، وإنما هي شيطانة أفقدتني عقلي، تجاوزت الساعة الثانية عشر ولم تخرج من غرفتها منذ ولجت إليها، ناديتها أن تخرج بحجة تناول عشائها فقالت لي من خلف الباب المغلق أنها ليست جائعة.

جلست وحيدًا على كرسي أمام طاولة السفرة أتناول طعامي بلا شهية، كنت متوترًا مرتبكًا مسحت بكَفَّيَّ وجهي فاصطدما بشعر لحيتي الكثة، تغيرت كثيرًا في الأعوام الماضية، وقفت حاملًا بعض الأطباق مُتجهًا للمطبخ، ثم عدت لأجلس مكاني فوجدتها أمامي على الطاولة زجاجة خمر مُمتلئة عن آخرها، كيف وقد سكبتهما بيدي نهشت الحيرة عقلي، تراها خرجت من الغرفة وأنا في المطبخ؟ ولكن كيف أحضرت زجاجة الخمر، كانت نيران الإدمان تحرقني، وحافز الضياع يدفعني لتناول ولو بضع قطرات، شعرت برأسي تدور ويدي

تندفع ناحية الزجاجة بلا إرادة مني، رأيت طيفها من تحت عقب الباب فعلمت يقينًا بأنها بدأت للتو إلقاء سحرها عليَّ.

اندفعت ناحية الباب أدقه بكتفي حتى كاد يقتلع من مكانه، وأنا أصرخ لاهثًا: اخرجي، واجهيني، ماذا أنتِ؟ هل أنت شيطانة؟ تراجع الطيف للخلف فهدأ روعي فأمسكت زجاجة الخمر، وكدت أقذفها بالحائط، إلا أنني بلا وعي فتحتها وتناولت منها رشفة، ثم رشفة، ثم أخرى إلي أن تجرعتها بأكملها بلا وعي مني أو إرادة، كنت أتخبط بين الجدران والأثاث فاقدًا الوعي، فاقدًا القدرة على الوقوف وفجأة سقطت، سمعت صرير باب يفتح، وشعرت بخطوات تقترب وأيدٍ تجرني، وكان هذا هو آخر ما أتذكر حينها.

أيتها الروح الشريرة الكامنة في باطن الأرض، انهضي أعينيني على الاقتصاص ممن ظلموني، أيتها الروح من أجلك أزهق دماء هذا الوغد قربانًا، فتقبليها مني، وامنحيني القوة التي لطالما مَنَحتِها لي على مدى مئات السنين، اتضحت الهمهمات التي استفقت عليها رويدًا رويدًا، حتي استوعبت تلك الكلمات واستطعت تفسيرها، كنت حينها مربوطًا في سريري، وقد جمعت يدي معًا ووثقتهم لأعلى رأسي عند طرف السرير، وكذلك رجلَيَّ.

رفعت رأسي أنظر إليها فرأيتها تجلس على أرضية الغرفة أمام

فراشي، داخل دائرة مرسومة بالطبشور، وقد أحاطتها بعشرات الشموع المشتعلة، كانت تختفي تحت وشاح أسود شفاف، بدا صوتها مختلفًا، أكثر نضجًا، وعندما مدَّت يدها تجاهي ترش عليَّ سائلًا ما رأيت يدها مُجعدة، ربما لم تشعر بأني استفقت لأنها كانت مُندمجة فيما تفعل.

الآن فقط أريد الخلاص لا أكثر.. أكانت الفتاة ملبوسة طوال الوقت؟ تلك الشيطانة كانت تستعمر جسدها الصغير، كلما زاد الدخان المتطاير من البخور الذي تشعله كلما علا صوتها أكثر وأكثر بالترانيم، رأيت عن جانبها الأيمن ساطورًا حادًا فعلمت ما تنوي فعله، لا شك أنني مقتول، تظاهرت بالإغماء بينما أفكر فيما ينبغي فعله للخلاص من الهلاك، عندما ركزت شعرت بجوار رأسي أدخنة تتصاعد، حاولت الالتفات لأسفل فلم أستطع، لكنني افترضت أنها شمعة، فقد أحاطت فراشي كذلك بالشموع.

حاولت تحريك يدي لآخر العمود المربوطة به وزحفت بجسدي حتى اقتربت من الشمعة التي تتصاعد أدخنتها عند رأسي فقربت يدي في محاولة مني لحرق الحبل.

كانت ألسنة اللهب تتصاعد بشدة خاصة، وقد أثارتها مادة الحبل البلاستيكة، فشعرت به يذوب وينفك عن يدي، كدت أحل

وثاق قدمي، فريتها أمامي بوجهها المخيف، دميمة، مرعبة، أمسكت الساطور وكادت تشقني نصفين، إلا أنني دفعتها بيدي بقوة فتقهقرت مصطدمة بالجدار، في ذلك الحين التقطت شمعة وأذبت وثاق قدمي، وسارعت خارجًا من الغرفة ولم أنس إغلاق بابها بالمفتاح، لا أدري من أين واتتني القوة.

اتجهت للمطبخ فتحت شعلات البوتوجاز، وقطعت خرطوم أنبوب الغاز الخاص بالسخان، وتوجهت مسرعًا لباب الشقة، وفجأة ظهرت أمامي من عدم، حالت بيني وبين الباب.

"يارب" ولأول مرة أقولها من قلبي "أغثني أرجوك".

كنت أردد في سري آية الكرسي، رياح قوية قذفتني للسقف ثم أعادتني مصطدمًا بالأرض، لكني لم أكف عن قراءة القرآن والدعاء، فتح الباب فجأة وظهر منه فستان أبيض شفاف حال بيني وبين الشيطانة، إلي أن خرجت وأُغلق الباب فما أن اندفعت ألهث في الشارع الخاوي إلا وسمعت صوت الانفجار.

سيدي الطبيب هل تصدقني؟

نعم سيد عاصم. ولم لا؟

لأنها حكاية لا تصدق، يظنونني مجنونًا، يزعمون أن الخمر سلب عقلي ودفعني لقتل الطفلة حرقًا.

هـم معـذورون الأمـر أصـعب مـن أن يُـصدق، خاصـة وأن الشرطة لم تجد سوى جثة الفتاة في المنزل مُتفحمة.

صمت قليلًا ثم أردف مبتسمًا: لكنني أصدقك.

شكرًا سيدي أنت شخص نبيل.

أشكرك سيد عاصم والآن بماذا ترغب؟

أعود لغرفتي.

حسنًا.

ضغط زر جهاز على مكتبه فدخلت الممرضة فأمرها قائلًا: خذي سيد عاصم لغرفته.

طأطأت رأسها وتأبطتني حتى وقفت، واصطحبتني لغرفتي، أودعتني فراشي وتركتني مغادرة وأغلقت الباب خلفها.

غادة افتقدك كثيرًا.

لم لا تأتي إليَّ فأنا أفتقدك أيضًا؟

لا طالما هذه لم تزل معكِ لا أظنني سأكون معكِ.

قلت كلماتي تلك وأنا أنظر لرؤى، التي تقف خلف زوجتي الجالسة عند حافة فراشي، ترتدي فستانًا أبيض شفافًا، بينما يتدلى حبل من رقبتها ينتهي في يد رؤى ذات الوجه المُحتقن.

تمت بحمد الله

سهير ربيع محمود

وُلِدتُ في محافظة الفيوم عام ١٩٨٦، وتربَّيت في أسرة متوسطة الحال، حصلت على ليسانس آداب إنجليزي، ولاحظت ميلي للكتابة.

بدأت الكتابة في الصف الأول الثانوي، وأول ما كتبته خاطرة شعرية قصيرة، ثم بدأت بكتابة قصائد كاملة.

"قصة أبواب السماء" تعد أول قصة قصيرة لي أرسلها في مسابقة ثقافية، وأول تجربة قصصية لي في هذا الصدد.

أعمل مدرسة وأحلم بأن يكون مستقبلي زاخرًا بالنجاح في مجال الإبداع الأدبي، أتمنى أن أكتب أفكارًا جديدة من الأدب، وأن يكون لقلمي صدى في قلوب القراء.

أحب كتابات توفيق الحكيم، وحبكة نجيب محفوظ، ولغة يوسف زيدان، وأتمنى حقًّا أن تكون كتاباتي خليطًا من إبداعات هؤلاء.

هوايتي المفضلة القراءة والتأمل، ومثلي الأعلى توفيق الحكيم، فقد قرأت معظم مؤلفاته، وشعرت بها تلامس وجداني، وتمنيت أن أغدو مثله.

أكتب الشعر والقصة بأنواعهما، ولي بعض التجارب المسرحية.

للتواصل معي على موقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك:

https://www.facebook.com/profile.php?id=100016474324051

obeikan.com